



التأثير السياسي للطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث

الهادي هارون

طالب دكتوراه / جامعة غرداية

أ.د. صالح بوسليم / جامعة غرداية

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور السياسي الذي قامت به الطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء خلال الفترة الحديثة، مع التركيز بالأساس على دورها في تطوير الأنظمة السياسية بالدول والممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، كمملكة سنغاي وإمارة كانو، وإمارة سكوتو، ودولة ماسينا، وذلك في محاولة للتعريف بنظام الحكم وتشكيله وطريقة بنائه. وتمثل الطريقة القادرية، أحد أبرز وأكثر الطرق الصوفية انتشارًا في إفريقيا جنوب الصحراء، منذ القرن الخامس عشر للميلاد.

الكلمات المفتاحية: الطريقة القادرية - إفريقيا جنوب الصحراء - التأثير السياسي - الممالك الإسلامية - أجوبة المغيلي على أسئلة الأسقيا.

The political impact of the Qadiriyya's Doctrine in the southern desert of Africa during the contemporary era.

Abstract :

The following survey aims at bringing out the political role that the Qadiriyya's doctrine undertook and brought out in the southern desert of Africa during the contemporary period, focusing mainly and basically upon its role in the promotion and development of the political systems of the Islamic countries and kingdoms in the southern desert of Africa such as: Songhai kingdom, the principality of Kano and the one of Sokoto and the state of Massena.

This is in the attempt of determining the organization of the political system and the way it is founded.

This Qadiriyya's doctrine represents one of the most spread Sufism creed in the Southern desert of Africa since the fifteenth century.

Key words: the Qadiriyya's Doctrine – the Southern desert of Africa – the political impact – the Islamic Kingdoms – the responses of al Maghili upon the questiobs of al asqiya.

توطئة:

أدت الطرق الصوفية دورًا هامًا في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء في الفترة الحديثة في جميع مناحي الحياة، ومن ذلك الطريقة القادرية، والتي كان لها تأثير كبير في تبلور الفكر السياسي في إفريقيا جنوب الصحراء؛ من خلال آراء واجتهادات علماء الطريقة كالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي والشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي، إلى جانب ظهور دول إسلامية أسستها شخصيات محلية انتمت للطريقة القادرية؛ كدولة الفلان ودولة ماسينا. وهو ما سنحاول معرفته في هذا المقال.

أولا : التعريف بالطريقة القادرية.

تُنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني، أو (الكيلاني) دفين بغداد (ت 561هـ/ 1166م). وكلمة الجيلاني نسبة إلى بلاد جيلان¹، والتي ولد

1 - هناك اختلاف في تاريخ ميلاد الشيخ، فمنهم من يقول بسنة 470 هـ ينظر: عبدالله عبد الرزاق إبراهيم: أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مكتبة مدبولي، القاهرة 1990، ص 18 و. وينظر كذلك: حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفلاني، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1991، ص 38 أما عن مكان ميلاده فقليل ببشتير، وهي موضع بجيلان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 2، دار صادر بيروت، 1977، ص 426، وهناك رأي آخر يقول أن جيلان قرية قرب المدائن جنوب بغداد وليس التي بأرض طابراستان، أنظر نور الدين أبي الحسن علي بن يوسف الشنطوفي: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، تح، جمال الدين فالح الكيلاني، الطبعة الماجستيرية، بغداد، 2010، ص 34.

بها سنة (471هـ/1078 م)¹. وقد عاش في بغداد، وتصدى للتدريس والإفتاء على المذهب الحنفي، واشتهر بالزهد والتقوى².

وذكر الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء" نسب الشيخ عبد القادر، حيث قال: هو الإمام والعالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام عالم الأولياء محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد مولده بجيلان في سنة إحدى وسبعين وأربعمئة³.

وقد ذكر الشنطوفي في "بهجة الأسرار": أخبرنا الفقيه العالم أبو المعالي أحمد بن الشيخ المحقق أبي الحسن علي بن عبد الرزاق عيسى الهلالي البغدادي قال: أخبرنا قاضي القضاة أبو صالح نصر قال أخبرنا والذي عبد الرزاق قال سألت والذي الشيخ محي الدين عن نسبه قال (عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم)⁴.

نشأ الشيخ في بيت معروف بالعلم، فوالده من كبار علماء الجيلان، وأمه ابنة عبد الله الصومعي الزاهد، وظل الشيخ عبد القادر في بلدة جيلان حتى سن 18، تلقى فيها مبادئ العلوم الشرعية، والتي لم تشبعهم ولم ترض طموحه، وللاستزادة من

أما عن نسبه، فقد كان سجال بين مؤيد لنسبه الحسنبي وبين طاعن في هذا النسب، على رغم من أن الشيخ لم يتكلم في نسبه في حياته ينظر: محمد الداه أحمد: **القادرية في موريطانيا**، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، إشراف: عبد الشكور محمد أمان العروسي، قسم العقيدة، كلية أصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية 1412هـ، ص38

1 - الحافظ بن كثير: **البداية والنهاية**، تح: محمد تامر وآخرون، دار البيان العربي، القاهرة، م6، 2006، ص، 635، وينظر كذلك: عبد القادر زبادة: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، د.م. ج، الجزائر، 2010، ص، 229.

2 أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الإسلامية، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1983م، ج6، ص 211.

3- شمس الدين الذهبي : **سير أعلام النبلاء**، تح، شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1985، ج20، ص 439.

4- الشنطوفي : المصدر السابق، ص 119.

العلم قصد بغداد سنة 488هـ/1095م، وهي السنة التي غادر فيها الإمام أبو حامد الغزالي المدينة.¹

مكث في بغداد حتى وفاته، جلس إلى علمائها وأهل الرئاسة فيها، حيث نهل من علومهم قرابة ثلاثين سنة، حتى عقد أول مجلس له سنة 521هـ/1127م. يتفاوت المؤرخون في ذكر شيوخ الشيخ عبد القادر ومنهم من عددهم إلى ثلاثين شيخاً.²

ومن أهمهم أبو الوفاء بن عقيل، ومحمد بن الحسن الباقلاني³، والشيخ أبو الخير حماد بن مسلم الدباس (ت 525هـ/1130م)⁴، والقاضي المبارك بن علي بن حسين المكنى أبا سعيد المخرمي (ت 513هـ/1119م) وأجازوه⁵.

وما أن بلغ سن الخمسين سنة، حتى صار من أشهر العلماء الحنابلة في بغداد، وطار شهرته في مختلف الأرجاء وشدت إليه الرحال، بحيث تكلم في ثلاثة عشر علماً، وكان يقرأ القرآن بالقراءات العشر، ويفتي على المذهب الحنبلي والشافعي⁶.

1- محمد أحمد درنيقة : الطريقة القادرية وأعلامها، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2009، ص 17.

2- محمد الداه أحمد : المرجع السابق، ص 52.

3- الباقلاني: أبو غالب محمد بن الحسن بن احمد الباقلاني البغدادي، روى عنه السمعاني، وابن ناصر والسلفي، اشتهر بكثرة بكائه خشية الله، توفي 500هـ/1106م، عاش ما يقارب 80 سنة. ينظر عنه: الذهبي: المصدر السابق، ج 19، ص 395

4- حماد بن مسلم الدباس : انتهت إليه رياسة تربية المريدين انتمى إليه معظم مشايخ بغداد و صوفيتهم في وقته. ينظر، حسن عيسى عبد الظاهر : المرجع السابق، ص 383.

5- أبو سعيد المخرومي : ولد في 446هـ/1054م، قال عنه ابن كثير سمع الحديث وتفقه فيه على مذهب أحمد، ناب في القضاء، كان حسن السيرة، جميل الطريقة سديد الاقضية توفي سنة 513هـ/1119م، ابن كثير، المصدر السابق، م 6، ص 573.

6- علي بدوي علي سلمان : الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريطانيا (1903-1960)، رسالة الماجستير، إشراف عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، جامعة القاهرة، 2003، ص 18، ينظر كذلك: عبد العزيز بن عبد الله : معلمة التصوف الإسلامي، دار نشر المعرفة، الرباط، ط 1، 2000، ج 2، ص 214.

جلس للوعظ في شوال 521هـ/1127م وكثر طلابه، حتى ضاقت المدرسة بالناس، فنقل مجلسه خارج بغداد عند المصلى، وقد عُد في بعض مجالسه أربع مئة (400) محبرة، كان يدرس التفسير والحديث والمذاهب والأصول وغيرها وقصد مجلسه كل الناس باختلاف أصنافهم من عامة وخلفاء ووزراء وعلماء.¹ توفي ببغداد وشيعة خلق لا يحصون.² وما لبث أن تحول ضريحه إلى مزار يقصده عامة الناس، وفي العهد العثماني اهتم السلطان سليمان بالمقام، وكذلك المسجد الموجود بجانبه.³

أثنى عليه علماء عصره، إذ يقول عنه العزّ بن عبد السلام: "بلغت إمامته القطع وكان عالماً عابداً متبعاً اتباعاً لا شائبة للهوى فيه، ومن أجل ذلك حازت طريقته القبول وقدره المفكرون قاطبه".⁴ وقال ابن قدامه الفقيه الحنبلي: "ولا رأيت أحد يعظم من أجل الدين أكثر منه".⁵

وقال ابن كثير: "... كان له سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهدٌ كثير، وله أحوالٌ صالحة ومكاشفاتٌ أكثرها مغالاة وقد كان صالحاً ورعاً...".⁶

ترك الشيخ مؤلفات كثيرة أشهرها الغنية لطلاب طريق الحق، الفتح الرباني والفيض الرحماني، فتوح الغيب، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية.... وغيرها.⁷

1- عبد القادر الجيلاني : المصدر السابق، ص 21، عيسى حسن عبد الظاهر : المرجع السابق، ص384.

2- الذهبي : المصدر السابق، ج20، ص 450.

3- أحمد درنيقة : المرجع السابق، ص26، وأنظر كذلك: عبد القادر زبادية : دراسة عن إفريقيا، المرجع السابق، ص230.

4- علي بدوي علي سلمان : المرجع السابق، ص19.

5- محمد الداه أحمد : المرجع السابق، ص67.

6- ابن كثير: المصدر السابق، ص635.

7- عبد الله عبد الرزاق: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا، مكتبة الإسكندرية، مصر، 1989، ص 19، أحمد درنيقة : المرجع السابق، ص، ص27-28.

ثانيا : انتشار الطريقة القادرية في غرب إفريقيا.

عرفت الطريقة القادرية انتشارا واسعا في أنحاء العالم الإسلامي، بفضل أبناء الشيخ عبد القادر الجيلاني وتلاميذه، وقد كان أول اتصال للطريقة القادرية ببلاد المغرب الأوسط وتونس على يد الشيخ أبي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي (ت594هـ/1197م)¹، وذلك خلال القرن 12م²، حيث تتلمذ على يد شيخها، وأخذ عنه التصوف وألبسه الخِزَّة في لقاءهما في الحج³. ولما رجع إلى بلاد المغرب استقر ببجاية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد، ونشر بها العلم وتعاليم الطريقة. وهكذا أخذت هذه الأخيرة في الانتشار في كامل بلاد المغرب، وذلك بواسطة عدة شيوخ، كعبد السلام بن مشيش⁴ وغيره، لتنتقل إلى الصحراء

1- أبو مدين شعيب الأنصاري: شيخ المشايخ، سيد العارفين و قدوتهم، الإمام المشهور أندلسي المولد، كان زاهدا فاضلا عارفا، من اعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي، سافر للمشرق وأخذ عن علمائه تنعرف على الشيخ الجيلاني، سكن بجاية ودرس بها، مات سنة 594هـ/1197م، ودفن بالعباد ضواحي تلمسان. أنظر يوسف بن يحي التادلي: التشوف الى رجال التصوف، تح: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط 1997، ص-ص 319-325، و أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط 1 1989م، ص-ص 193-198، وكذلك عبد القادر التليدي: المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار الأمان، الرباط، ط 2003، ص-ص 92-99.

2- الطاهر بونابي: المرجع السابق، ص 543، وأنظر كذلك آدم عبد الله الألوري: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، الدار العربية، بيروت، ط 2، 1971، ص 43.

3- الخليل النحوي: شنتيظ الرباط والمنارة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص 121، خنقوف إسماعيل: دور الطرق الصوفية في منطقة الأوراس، 1844-1931، بحث مقدم للماجستير، إشراف صالح فركوس، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة باتنة، السنة الجامعية، 2010، 2011، ص 36.

4- اختلف المؤرخون في سنة ميلاد عبد السلام بن مشيش، فمنهم من قال في سنة 559هـ/1163م، ومنهم من رجح 563هـ، ولد بقرية الحصين، من قبيلة بني عروسي، وهي قبيلة جبلية، قرب ساحل المحيط، حفظ القرآن وهو في سن الثانية عشر من عمره. ومن أشهر مشايخه الولي الصالح الحاج احمد القطران، له صلاة تسمى بالمشيشية، توفي سنة 625هـ/1227م، ينظر التليدي: المرجع السابق، ص-ص 92-99.

والواحاح، ومن توات في أقصى جنوب غرب الجزائر؛ ولجت الطريقة إلى بلاد السودان الغربي عن طريق الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ/1503م)¹ الذي نشر الطريقة القادرية بمنطقة توات وأسس بها زاوية بقصر بوعلي في أواخر القرن 9هـ/15م، إذ كان لها إشعاع كبير في منطقة توات وغرب إفريقيا.²

1- المغيلي: هو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ولد بالقرب من تلمسان وعلى الأرجح بمواطن قبيلة مغيلة البربرية بالغرب الجزائري، نشأ بتلمسان، حيث تلقى تعليمه على يد شيوخها، ثم تحوّل إلى مدن أخرى بالمغرب الأوسط والأقصى لمتابعة دراسته، فأخذ عن الشيخ يحيى بن يدير وعن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي عالم الجزائر ووليها (ت 875هـ/1470م) كما درس على الشيخ أبي العباس الوغليسي ببجاية، فاكسب ثقافة دينية وأدبية أهلته لأن يعد من علماء عصره، فنال التقدير وحظي بالاحترام من طرف العديد من العلماء. وكان المغيلي من أكابر علماء القرن التاسع الهجري/15م، لما اشتهر به من ثورة على تخلف وانحراف المنطقة التي هاجر إليها عقب ظروف خاصة بالمغرب الأوسط (الجزائر)، وقد اتخذ المغيلي منطقة توات وتمطيط مستقراً ومجالاً للدعوة وتجديد روح الإسلام، ثم اتصل بحكام الهوسة الوثنيين بالسودان الغربي، وكانت له محاورات مع الحاج محمد الأسقيا حاكم سنغاي، كما كان للمغيلي مواقف الحادة من سيطرة اليهود على تجارة السودان الغربي، فحارب نفوذهم ودعاهم إلى الالتزام بالعهود والنصوص الإسلامية والقوانين الضابطة لعلاقات المسلمين بأهل الذمة في الدولة الإسلامية.

ينظر: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999م، ص 266.

ينظر أيضاً: أحمد بن يحيى الونشريسي: كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق الأستاذ: محمد الأمين بلغيث، مؤسسة لافوميك للنشر والتوزيع، الجزائر 1985م، (مقدمة المحقق) صفحات، ص ص 05-13.

2- ينظر التنبكتي: المصدر السابق، ص 576. صالح بوسليم، الزين محمد: حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات وإفريقيا الغربية خلال القرنين 12-13هـ/18-19م، في مجلة الحوار المتوسطي، العدد 05، يصدرها مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس - الجزائر، مارس 2013، ص ص 37-38. زهرة مسعودي: الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18م-20م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف عبد الكريم بو الصنفصاف، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية، جامعة أدرار، 2009-2010، ص 52. انظر أيضاً التنبكتي: المصدر السابق، ص 576.

فقد قام الشيخ المغيلي برحلة طويلة إلى منطقة السودان الغربي، حيث زار عدة مناطق وظل فيها مشغلا بالوعظ والدعوة والنصح للحكام، ومن هذه المناطق كانو، وكاتسينا، وكاغاو، وتيقدا، وآهير، وبلاد الهوسا ثم بلاد التكرور، وبعد ذلك التحق بغاو عاصمة مملكة سنغاي والتقى بالأمير الأسقيا محمد الكبير¹. الذي حكم سنة 1493م²، ولذلك يعتبر الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي أول من نشر الطريقة القادرية بالسودان الغربي³.

وفي سنة 1553م بدأت أفكار جديدة تؤثر على الطريقة القادرية في وسط وغرب إفريقيا وجاءت هذه الأفكار من مصر وتركيا عبر شرق إفريقيا، حيث ظهرت أفكار الشيخ زروق⁴،

والذي يعتبر من أهم رجال الطريقة بأغاديس، ومن هذه المدينة انتقلت أفكاره وآراؤه إلى الشيخ المختار الكبير¹.

1- الأسقيا محمد الكبير: الحاكم الأول لمملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493م-1528م)، عمل على تقوية الدولة من خلال القيام بخلق مؤسسات، وتحرير الجيش وفتح لكل أبناء القبائل، وتنظيم الإداري للبلاد بتقسيمها لمقاطعات، قرب إليه الفقهاء والعلماء، وقد شهدت مملكة سنغاي في عهده أكبر اتساع جغرافي، وتعداد بشري. وتنظيم حضاري. ينظر: عبد القادر زباديه: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 31 وما بعدها.

2- عبد العلي الودغيري: اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 2010، ص-ص 77-79، وأنظر كذلك يحيى بو عزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16م إلى مطلع القرن 20م، دار هومة، الجزائر، 2001، ص-ص 80-83.

3- آدم عبد الله الألوري: المرجع السابق، ص 43.

4- الشيخ زروق: هو أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق، الامام القطب المحدث الصوفي (846هـ/1442م-899هـ/1493م)، عاش يتيما، حفظ القرآن وهو صغيرا، اشتغل بالتصوف، أخذ رسالة الطوسي عن عبد الرحمن المجدولي، من شيوخه التازي والمشدالي أما في المشرق منهم الحافظ السخاوي، وابن عقيه الحضرمي، ومن مؤلفاته شرح مختصر خليل، وكتاب عدة المريد. التنبكتي: المرجع السابق، ص 130

ونظرًا للروابط التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، فقد كانت هناك هجرات من منطقة توات إلى غرب إفريقيا، ومن هذه الهجرات هجرة قبيلة كتنة والذين اتخذوا من ولايته مركزًا لهم؛ ولذلك عدت هذه المدينة مركزًا حضاريًا للثقافة الإسلامية للسودان الغربي، وأول نقطة لنشر الطريقة القادرية لهذه المناطق، وبسبب ظروف تحولت هذه القبيلة إلى تنبكت ونشروا فيها الاسلام عن طريق الطريقة القادرية، وبعد توطد أركان الطريقة القادرية بالمدينة أخذت طريقها إلى باقي أجزاء القارة.²

ولعل أبرز من جاء بعد المغيلي الشيخ أحمد البكاي³ وأبنة سيدي عمر (ت 1552م).⁴

كما عمل السيد التآزاري على نشر القادرية في كل ما يسمى اليوم بغامبيا وغينيا بيساو وليبيريا وغانا.⁵

ومن أبرز الوجوه الكتبية التي ساهمت مساهمة فعالة في إرساء القواعد القادرية وبناء سرحها وإضفاء الطابع الإفريقي عليها بالمنطقة الشيخ سيد المختار الكبير الكنتي (ت 1811م)، وقد نجح بسبب تمتعه بصفات حميدة وثقافة عالية، واعترف له

1- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم : المرجع السابق، ص 37، عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق، ج2، ص، 215.

2- توماس آرلوند : الدعوة إلى الاسلام ، تر : حسن إبراهيم حسن، القاهرة ، النهضة العربية، 1984، ص 365.

3- البكاي: سيدي احمد البكاي (ت 920هـ/ 1514م)، عابد صالح قيل انه كثير البكاء، لان الصلاة في المسجد فاتته مرة، فلقب البكاي، مر بولاته فرأى الناس من برسته ورغبوا اليه في البقاء معهم، فأقام بها، قبره بحبلها معروف اليوم. النحوي : المرجع السابق، ص 515.

4- سيدي عمر: بن الشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي (ت 959هـ/ 1552م)، أخذ الطريقة على يد الشيخ المغيلي، حيث صاحبه 30 سنة، وقيل أن المغيلي أوصى تلاميذه بالذهاب إليه بعد موته. محمد الداه أحمد: المرجع السابق، ص ص 149-150.

5- محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية: المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2007، ص 44، أحمد شلبي : المرجع السابق، ص 212.

بالمشيخة وأصبح قطباً للطريقة القادرية.¹ وأصارت تعاليمه التي حملها تلاميذه، من أبرز العلامات التي ساعدت على انتشار الاسلام بين شعوب افريقيا جنوب الصحراء، خاصة في بلاد السودان الغربي والأوسط.²

كما أنشأ المختار الكبير مدارس وزوايا جديدة لنشر الطريقة القادرية والإسلام في منطقة نهر النيجر والأجزاء الغربية وجنوب البورنو، وكاتسينا، ودانداي، والسينغال، وقد اكتسب تلاميذه الذين انتشروا في غرب إفريقيا احتراماً وقبولاً من خلال سلوكهم وتعاملهم في تجارتهم مع الأفارقة، وإذ سمح لهم هذا النشاط بالاختلاط مع المواطنين في المناطق الوثنية، كما عملوا على تأسيس المدارس بهاته المناطق لتحفيظ القرآن وتعليم ما يجب معرفته في أمور الدين.³

ويجب أن نشير بأن الإسلام بجهود قادة الطريقة القادرية لم يعد ديناً لمجموعة قليلة من التجار أو من العلماء في المدن الرئيسية، بل أصبح ديناً يعتنقه الملوك الوثنيون.⁴

وعلى هذا الأساس امتد نفوذ الشيخ المختار الكبير الكنتي في غرب إفريقيا، وتبعه أمراء وقبائل إفريقيا عدة، فقد بايعه أمراء سكوتو، حيث بايعه الشيخ عثمان بن فودي وأخوه عبد الله وأبنة محمد بلو، وأمراء بورنو وجميع القبائل الفولانية، البمبارا، والسنگاي، و الماندي، وجميع الأفارقة المتواجدين من الشمال والغرب وبحيرة تشاد في الشرق.⁵

1- عبد الرزاق عبد الله إبراهيم : المرجع السابق، ص 38، وأنظر كذلك:

Shamil Jeppie and Souleymane Bachir Diagne: The meaning of Tumbukto Published by HSRC Press, South Africa,fp2008, p, 199

2- صالح بوسليم ومحمد الزين : المرجع السابق، ص 37.

3- أحمد إلياس حسين : دور الصوفية في المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء (9-13هـ) (15-19م) السودان نموذجاً، في مجلة الجامعة الأسمرية، ليبيا، السنة الثالثة ع أربعة، ص، 316.

4- أحمد إلياس حسين : المرجع نفسه، ص، 316.

5- زهرة مسعودي : المرجع السابق، ص 71.

ثالثاً: تأثير آراء الشيخ المغيلي في الحياة السياسية بالمنطقة.

تحدثنا أعلاه عن رحلة المغيلي إلى بلاد السودان ودوره الإصلاحي والتعليمي فيها، وأثناء هذه الزيارة كان قد تقلد القضاء والاستشارة لدى بعض الملوك، ففي كانو التقى المغيلي بحاكمها محمد بن يعقوب رنفا، الذي عينه كمستشار له، وطلب منه أن يكتب له فيما يخص أمور السلطنة فكتب له ما يحضه على إتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده، على منوال الأحكام السلطانية للموردي¹.

1- رسالة ووصية المغيلي لأmir كانو :

قد رتب المغيلي رسالة أمير كانو في ثمانية أبواب حسب الموضوعات التي طرحها:

الباب الأول: يجب على الأمير حسن النية في الإمارة، وإن على كل ذي عقل الابتعاد عنها إلا إذا لم يكن له بدٌّ منها، فتوكل على الله فيها واستعين به وليكن عملك كله خالصاً لوجه الله...²

الباب الثاني : يجب على الأمير تحسين الهيئة في مجلسه، وإظهار حب الخير وأهله، وبغض الشر وأهله ويعتدل في لباسه....، غير مبذر لبيت المال....، ويقرب إليه الأخيار والعلماء والأتقياء والصلحاء.³

1- التمبكتي : المصدر السابق ، ص 577 ، مبروك مقدم: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية خلال القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2006، ص33

2- المرجع نفسه، 88.

3- أبوبكر ميغا: دعوة الامام المغيلي العلمية والاصلاحية في السودان الغربي اواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين وأثرها في الرعاية والرعية وانتعاش الحركة العلمية بالمنطقة، في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ع 7، أكتوبر 1992، ص 209

الباب الثالث : فيما يجب عليه من ترتيب مملكته على ما يتمكن من صلاحها، لأنه راعٍ على جميعهم، ولا يمكن أداء ذلك إلا بنواب، كالوزراء والإمامة والقضاة والأمناء

الباب الرابع : التزام الحذر في الحضر والسفر بإظهار القوة والجلد عن تغيير الأحوال. وإظهار الزهد في الصاحبة والولد لئلا يمنعه ذلك عن العدل. وحب الخروج للجهاد وبغض المقام، في الديار... وأن يكتم سره.

الباب الخامس : فيما يجب كشفه عن الأمور التي يجهل في رعيته، بالعدول والأمناء.... وكأموار الأعداء بالجلساس والأمناء .

الباب السادس: فيما يجب عليه من العدل والإحسان، فالعدل أن يوفي كل ذي حقٍ حقه، أما الإحسان فهو أن يتفضل من نفسه، أي يزيد لكل من أراد أن يحسن عليه زيادة على صفة مما كان من نصيبه، لا ما كان من نصيب غيره... ومن العدل أن يساوي بين الخصمين في جميع أمورهما، وأن لا يقبل من الشهود إلا من كان عدلاً رضي فيما لا تهمة له فيه، فإذا تعذرت العدالة فعليه أن يراعي أمثالهم.¹

الباب السابع : فيما يجب عليه من جني الأموال من وجوه الحلال، وملاك السلطنة هو الكف عن أموال الناس بأن لا يطلب منهم شيئاً لم يكلفهم الله به، والطمع في أموالهم خراب للمملكة، فمن الأموال التي حللها الله للأمرء قبضها وصرفها هي: زكاة العين والحرث والماشية وزكاة الفطر والمعدن وخمس الغنيمة والركائز وأموال الحرابة والصلح، وما يؤخذ من تجار أهلها وتركها لا وارث لها، وما أفاء الله به من أموال أهل الحرب بلا حرب... وعن الأموال المحرمة؛ أموال الظلم، كأخذ أموال التولية على القضاء، والرشاء لسلطان وقاضٍ وعامل.. ، وقبول الهدية،

1- آدم عبد الله الألوري : المرجع السابق، ص-ص 78-80

حيث إذا دخلت الهدية على ذي سلطان خرج عنه العدل والأمان وصار صاحبه بالخيان.¹

الباب الثامن: وفي مصارف أموال الله؛ فيجب على الأمير صرف أموال الله بالكرم لا بالبخل، والتبذير والكرم بذل ما يحتاج له عند الحاجة المستحقة بقدر الطاقة، ... فمن خرج عن هذا الحد فقد تعد وظلم، وهو إما بخيل أو مبذر في أرزاق بيت المال، وفي كليهما خراب المملكة. فمال الله قسمان: قسم زكاة مصارفه الأصناف الثمانية التي في القرآن، والقسم الثاني الفيء كالحمس والركاز... والتي ذكرت سابقاً حصر فيها حكمه إلى الإمام تصرفه في المصالح بالتقوى لا بالهواء.²

كما كتب الشيخ المغيلي وصية لملك كانو، بعد أن سأله عما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، وهي الرسالة التي يتضح من مضمونها الحركة الإصلاحية النشيطة التي قام بها المغيلي في بلاد إفريقيا جنوب الصحراء، ويمكن إيجاز التوصية فيما يلي:

لا بد من ردع المفاصد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية على حسب الطاقة البشرية، فلكل دواء داء ولكل مقام مقال وفعلاً بحسب ما يظهر في الأحوال، وأمنع جميع أهل البلاد عن جميع أنواع الشرك وكشف العورة وشرب الخمر، وغير ذلك من المحرمات، وأمنع الكفار من أن يظهرُوا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل لئلا يفعل ذلك ضعاف العقول من العامة والنسوان والصبيان، ومع عدم فعل بالمفسد ما هو أشد في رده قد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله "تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور"، إن الناس في حكم الله ورسوله سواء، فلا تخرج من ذلك عالماً ولا عابداً ولا أميراً فأقم حق الله على جميع عباده بالتقوى لا بالهواء.³

1- مبروك مقدم: المرجع السابق، ص-ص 117-119. آدم عبد الله الألوري: المرجع السابق، ص80.

2- نفسه، ص81.

3- يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 95-97 وكذلك آدم عبد الله الألوري: المرجع السابق، ص-ص 83-85.

من خلال الوثيقتين، يتّضح بأن المغيلي، قد أعطى تصوّرًا واضحًا للمفاهيم الإسلامية التي يجب أن يلتزم بها الحاكم والمحكوم، من وجوب استشعار أن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسوله صلى الله عليه وسلم، ووجوب إحسان النية فيها، وما يجب عن الأمير في خاصة نفسه ومجلسه وبطانته، وترتيب مملكته وحسن اختيار أعوانه وعماله، ووجوب التزام الحذر في الحضر والسفر، وشدة مراقبة العمال ومدى التزامهم بالعدل.¹

وما يجب عليه وعليهم من جني الأموال من وجوه الحلال، وصرافها في مصارفها الشرعية ومنع أهل البلاد عن جميع أنواع الشرك والمحرمات، ومنع كفار البلاد من فعل ذلك، وأنّ الناس سواء في حكم الله ورسوله.²

2- أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي:

رحل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد كانوا إلى سنغاي، ووصل إلى كاغو واتصل بالأسقيا محمد الأول سنة 1502م، وكانت أجوبة المغيلي لأسئلة اشتغل بها السلطان، وقد تعلّقت بانشغالاته السياسية وقضايا تنظيم الإمارة وأحوال الرعية.³

ومن مضمون الإجابات، يمكن قراءة تأكيد المغيلي على المسائل السياسية التالية:

- السلطان راع لا مالك، إذ أن الملك لله وهو الذي يحفظ ويعين الطائع، وكل راع مسؤول عن رعيته. وأوصى الأمير بالعدل والابتعاد عن أهل الشر وتقريب أهل الخير.

- على السلطان إبعاد علماء السوء ولأن شرهم مستطير وهم أضر على المسلمين من جميع المفسدين، وعدم تركهم يتكلمون في أمور الدين.

1- أبو بكر ميغا: المرجع السابق، ص 207.

2- المرجع نفسه، ص 208

3- محمد بن عبد الكريم المغيلي: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تح: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر للتوزيع الجزائر 1974م، ص، 6.

- تقرب أهل الذكر واستشارتهم والاستماع إلى نصائحهم، مع وجوب أن يكون الأمير كيّس فطن له منزلة من العلم والعمل¹.

- وجوب معرفة من تجب مجاهدتهم، وعلى الأمير أن يكون عارفاً أوجه الجهاد فلا يجاهد المسلمين؛ والكفار أصناف ثلاثة: الكفر الصريح، وكفر المسلم المرتد، وكفر المسلم الذي يحكم بكفره، والبلاد ثلاثة: السائبة يجوز الجهاد فيها، والثانية البلاد التي لها أمير يسوس الناس في دينهم ودنياهم لا يحل لأحد أن ينازعه في رعيته، والثالثة أميرها ظالم فإن تيسر خلعه فجائز...²

- اتخاذ المحتسب وبيت المال، وعمال على الأموال في جبايتها من وجهها الشرعي، وإنفاقها في وجه الخير وشروط المسؤول على مال المسلمين التقوى والعدل.

- وجوب محاربة العصاة بأحكام الله من خلال حفظ حدود الشرع في الميراث والمال.

- محاربة المفسدين ومدعي السحر، لأن فسادهم في البلاد كبير، وعلى الإمام إرجاعهم إلى الصواب، ومنع المناكر والمحرمات.³

وعلى ضوء هذه الأجوبة يتجلى بوضوح اجتهاد الشيخ المغيلي في بحث المسائل الشرعية، وأن فتاواه كانت بمثابة قانون شرعي جمع أغلب المسائل التي تنظم الدولة وأحوال المجتمع.⁴

1- عبد الله مقلاتي و رموم محفوظ : دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية

بإفريقيا الغربية، دار الشروق، 2009م، ط1، ص، 126

2- عبد الله مقلاتي و رموم محفوظ: المرجع نفسه، ص 126.

3- المرجع انفسه، ص128.

4- أبو بكر ميغا : المرجع السابق، ص، 250، الطيب الوزاني : مقومات التفاعل الحضاري بين دول إفريقيا والمغرب الأقصى معالجة في التركيب، ضمن كتاب ندوة التواصل، ص، 489.

وقد امتد تأثير الشيخ المغيلي إلى عصر عثمان بن فودي، حيث اعتبرت الدولة الفلانية قائمة على الأسس التي وضع أصولها المغيلي، لأن الشيخ عثمان بن فودي يعده مرجعاً مهماً؛ كما أن كل من معه يتمسكون برسائله وفتاواه.¹

رابعاً : الدول القادرية في غرب افريقيا.

1-دولة الفلاني (سكوتو):

عاشت ولايات الهوسا بعد سقوط مملكة سنغاي عهداً فوضوياً اتسم بالحروب والنزاعات المستمرة بين ولايات الهوسة السبعة، وكان ذلك تمهيداً لظهور قوة الفلانيين؛ بقيادة الشيخ عثمان بن فوديو.²

أ - مولده ونشأته:

ولد الشيخ عثمان بن فوديو بأرض غوير في أسرة فولانية (1754-1818م) ، ونشأ في حجر والديه الصالحين، كان أبوه من أهل الفتية فنشأ عثمان نشأة صالحة في هذه البيئة الدينية، فأخذ مبادئ العلم عن والده وحفظ القرآن وهو صغير؛ ومن شيوخ عبد الرحمن بن حمدا والذي أخذ عليه علوم اللغة، وعن الفقيه محمد تنب بن الشيخ عبد الله الفقه ورحل في سن العشرين إلى بلاد الطوارق لمدينة آغاديس الحاضرة العلمية، حيث تعلّم على يد الشيخ جبريل بن عمر القادري ونهل من علمه حتى أجازته.³

وقد كان لهذا العالم الأثر الفعال في تكوين شخصية عثمان علمياً وفكرياً، ثم انتقل الشيخ لدرس علم التفسير على أحمد بن محمد الأمين وهاشم الزنفرى، ثم درس علوم الحديث على يد خاله بن مود بوعال، وبعد هذه الرحلة الطويلة الحافلة بالنشاط والاجتهاد في تحصيل العلم بلغ بن فودي مرحلة متميزة من النضج بفضل ما اكتسبه

1- محمد مسعود جبران: التفاعل العقدي والحضاري بين الغرب الإسلامي والسودان الأوسط

والغربي، في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، العدد 22، 2005م، ص 97.

2- آدم عبد الله الآلوري : المرجع السابق، ص 94.

3- آدم عبد الله الآلوري : المرجع نفسه، ص 94.

من خبرة في معالجة المسائل الدينية والقضايا الاجتماعية، ومما أهله ليكون داعياً ومصلحاً في بيئة تفتشت فيها الخرافات والبدع والمفاسد الأخلاقية، ونسي الناس أصول الدين الإسلامي، في هذا الجو أخذ الشيخ عثمان على عاتقه رسالة إصلاح المجتمع والدين والسياسة، وإحياء الكتاب والسنة النبوية، وبناء دولة إسلامية.¹

ب- حركة عثمان بن فودي وتأسيس الدولة: لخص الدارسون حركة عثمان بن فودي في ثلاث مراحل:

- **الدور الأول:** انطلاق الدعوة ومنجزاتها (1198هـ - 1780م/1218هـ - 1800م)

في هذه المرحلة مارس الشيخ الوعظ والإرشاد ودعوة الناس إلى تصحيح عقيدتهم الإسلامية ونبد البدع والخرافات، وإتباع السنة والتفقه في الدين، ومن أجل ذلك قام بعدة سفريات في بلاد الهوسا²

سعى من خلالها لإقناع الناس بدعوته الإصلاحية الجديدة، ودرس الوعظ وابتعد عن شؤون السياسة حتى لا يصطدم بالحكام والأمراء، ورفض الاتصال بهم والتعاون معهم حتى يكون حراً في دعوته مركزاً على بث التربية الدينية والخلقية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتخذ الشيخ من بلدة الدغل مقراً لدعوته الجديدة يعود إليها كل ما انتقل إلى جهة من الجهات كما اعتمد على تلاميذه كأعوان له منهم أخوه عبد الله الذي لازمه ما يقارب نصف قرن، وقال عنه: " قمنا مع الشيخ عثمان نعينه على تبليغ الدين، يسير لذلك شرقاً وغرباً يدعو الناس إلى دين الله بوعظه وقصائد أعجمية، ويهدم العوائد المخالفة للشرع"³.

وقد زار الشيخ عثمان إقليم زامفاور الخاضع لإمارة جوير، وأقام بها خمسة سنوات يدعو الناس للإسلام نساءً ورجالاً فأثار حفيظة بعض العلماء مثل الشيخ

1- أحمد بو عتروس: المرجع السابق، ص ص 134-135.

2- يحي بو عزيز: المرجع السابق، ص 142.

3- يحي بو عزيز: المرجع نفسه، ص 142.

مصطفى القوي الذي أنكر عليه النساء والرجال في حلقاته الدراسية والوعظية¹.
فألف الشيخ كتاباً للرد على هذه الاتهامات وسماه تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ مجلس
لأجل تعليم النسوان وكلف أخوه عبد الله بالرد شعراً على ذلك².

وركّز الشيخ عثمان في وعظه وإرشاده على أسس قامت عليها دعوته، فقد وضح
عقيدته الإسلامية والمذهب المالكي الذي ينتمي إليه، كما اهتم بشرح العبادات
وإرشاد الناس كل ما يهم أمور دينهم وتأدية عبادتهم على الوجه الصحيح، مستخدماً
في ذلك جميع الوسائل الفكرية والعلمية للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،
مركّزاً على الدعوة إلى التوحيد الخالص والبعد عن الشرك والحظ على الالتزام بسنة
رسول الله وترك البدع والأهواء، وجعل حقيقة التصوف تعود لصدق التوجه إلى الله
الاقتداء بسنة رسوله³.

وبفضل نجاحه حسده بعض علماء زمانه وسعوا به لدى الأمراء والحكام، مما أثار
حفيظة أمراء إمارة جوبير وقلقهم من حركة الشيخ، فحاول السلطان ناوا إرضاء
الشيخ بهدية فرفضها طالباً منه عوضاً عنها النقاط التالية⁴:

- السماح للشيخ وجماعته بدعوة الناس في سلطنته إلى دين الإسلام؛
- عدم اعتراض أو منع أي شخص يعتزم التجاوب مع تلك الدعوة واعتناق
الإسلام طوعاً؛
- احترام السلطان وحاشيته لجماعة الشيخ؛

1- ينظر: القصيدة للرد في تعليم النسوان، عبد القادر زبادية: إفريقيا...، المرجع السابق، ص-
ص78-84.

2- آدم عبد الله الألوري: المرجع السابق، ص 106.

3- نورة بنت معجب الحامد: دعوة الشيخ عثمان بن فودي بنيجيريا 1202هـ/1788م وتأثيرها
بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، كلية الآداب جامعة الملك سعود، السعودية،
2007م، ص، 10، كذلك يحيى بوعزيز: المرجع السابق ص 143.

4- عثمان بيرما باري: جذور الثقافة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين، ط1، القاهرة
،2000، ص، ص105-106.

- إطلاق سراح جميع الذين اعتقلوا من قبل السلطان بحكم انتائمهم للجماعة؛
- تخفيف عبء الضرائب المقررة على أهالي السلطنة.

ويعد وفاة السلطان ناوا 1794م خلفه نافاتا وواصل عداؤه للمسلمين والتضييق على جماعة الشيخ، ونظم مؤامرة لقتله لكنه مات قبل ذلك ليخلفه ابنه يوناغا، وسار على نفس النهج وقتل كثيراً من أتباع الشيخ؛ وعندئذ قرر الشيخ أن ينتقل بحركته من الوعظ والإرشاد إلى إعلان الجهاد.¹

- الدور الثاني : (1800م-1810م)

أصدر في بدايته وثيقة لأهل السودان عام 1802م، دعى فيها إلى إعلان الجهاد ضد أمراء جوبير ومحاربة الطغاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والهجرة من أرض الكفرة والكفر إلى أرض الإسلام وصارت هذه الوثيقة إعلاناً رسمياً للجهاد، حيث حدد فيها الشيخ الأسس التي بنى عليها جهاده، كوجوب الهجرة إلى من بلاد الكفر ووجوب الجهاد وموالة المؤمنين، وتعيين القضاة وتأمير الأمراء واتباع ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارها أهم مصادر التشريع الإسلامي وتنفيذ أحكام الشرع.²

وبعد أن أصدر الشيخ هذه الوثيقة راسل جميع الأمراء في بلاد الهوسا طالباً منهم الدخول تحت طاعته على أساس الإسلام، فرفضوا دعوته ماعدا أمير زارايا، مما جعله يدخل بأنصاره وتلاميذه في حركة جهادية.³

وبعد الانتصارات المحققة على جميع الأمراء في بلاد الهوسا المترامية أسس دولته الإسلامية واتخذ من سكوتو عاصمة لها.⁴

1- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 145.

2- أحمد بو عتروس: المرجع السابق، ص 153.

3- عبد القادر زبادية: إفريقيا، المرجع السابق، ص 80.

4- لمعرفة المعارك وتواريخها أنظر أحمد بو عتروس: الحركة الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء إبان القرن الثالث عشر التاسع عشر ميلادي، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص-ص 152-153.

- الدور الثالث: (1225هـ-1810م/1233هـ-1817م)

ويتميّز هذا الدور بتوطيد دعائم هذه الدولة الإسلامية الجديدة في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية، والتي ضمت أقاليم شاسعة في غرب إفريقيا في كل من بلاد الهوسا والمناطق المجاورة في بورنو والكانم والمناطق الجنوبية في كيبى والنورين، أي المناطق الممتدة من بحيرة التشاد شرقاً حتى منحى النيجر غرباً، ومن الغابات الاستوائية حتى الصحراء شمالاً.¹

إن هذا النجاح تولدت عنه أعباء جديدة ومسؤوليات جسيمة، فكان على الشيخ أن يقوم بإصلاح إداري مكثف وتنظيم الشؤون السياسية والمالية والاجتماعية والثقافية والدينية، وتوحيد كل إمارات بلاد الهوسا، ففي جانب التسيير اتبع النظام الفلاني مجلسين في تسيير شؤون الدولة ؛

- مجلس استشاري يضم أبرز أعوان الخليفة وأصفياه ومساعديه في تأدية المهام المنوطة به ؛

- مجلس تنفيذي يسهر على وضع مراسيم وتعليمات وأوامر الخليفة ونواحيه موضع التنفيذ، يضم هذا الأخير الوزير والقاضي والمحاسب.²

أما الخليفة، فقد تحدّدت مهامه واختصاصاته في المجالات التالية:

- الإشراف على حقوق الرعية والمحافظة عليها داخل المجتمع وفق ما تأمر به الشريعة الإسلامية؛

- السهر على حماية حدود الدولة الإقليمية وممتلكاتها، وتحصين المدن وتسويرها بصدد هجمات الأعداء.³

1- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا، المرجع السابق، ص 149.

2- أحمد بوعتروس : المرجع السابق، ص-ص 157-159.

3- نفسه، ص 159.

وقد اتّضح تأثير التاريخ الإسلامي في فكر عثمان بن فودي من خلال تنظيم الدولة، فقد عمل على تثبيت نظام الشورى واتخاذ لقب أمير المؤمنين، كما اتخذ مجلس استشاري للأمير يتكون من الوزير وولي العهد والقضاة وممثل للقبائل الرئيسية، أمير كوني، أمير سيلياوا، وأمير كابي ويتمتع الأمير فيه بالكلمة النهائية.¹

– نظام الوزارة والوزراء:

ركّز الشيخ على نظام المجلسين واعتمد على معيار الدين والعلم والكفاءة في تولية مناصب الوزراء والقضاة، ودعم هذه المناصب بمناصب أخرى كالأمناء والقادة والمستشارين والولاة والشرطة والسعاة، أما الجيش وضع له نظاماً وحمل فيه القائد اسم أمير الجيش.²

وبما أن الدولة المنشأة كانت مترامية الأطراف، فكان من الصعب التحكم فيها مركزياً، لذلك اعتمد على المساعدين، حيث قسّمت الدولة إلى عدة إمارات، كما اتبع نظام الدواوين وسمّاه الولايات فأنشأ عشرين ولاية لإدارة الدولة أهمها الخلافة العامة، والوزارة، والقضاء، ورد المظالم، والجهاد، وقسم للغنيمة، وقسم للفيء والكتابة، وقسم وضع الجزية، وقسم للصلاة، وقسم للصدقة وقسم للحج وغيرها. وحدد لكل ولاية اختصاصاتها وأسلوب عملها.³

وقد قسّم البلاد إلى مقاطعتين، مقاطعة شرقية عهد بها إلى ابنه محمد بلو، والقسم الغربي عهد به إلى أخيه عبد الله؛ وتشمل المقاطعة الشرقية كلاً من: زنفارا، كاتسينا، كانو، ويوشي وسكوتو المركز الرئيسي؛ أما القسم الغربي فيشمل نوب ودانداي، وبورجو، وإلورين، والمركز الرئيسي جواندو في إقليم كابي.⁴

1- مصطفىاوي سعاد: الطريقة القادرية في غرب إفريقيا بين القرنين 14م و 18م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، تخصص: دراسات إفريقية، إشراف: بن يوسف تلمساني، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الجزائر، 2010م، ص 25.

2- مهدي رزق الله: المرجع السابق، ص 255.

3- نفسه، ص 255.

4- إلهام محمد علي ذهني: المرجع السابق، ص 44.

وتفرغ الشيخ بعد ذلك للتدريس والتأليف، حتى توفي عام 1817م في مدينة سفاوا، وحمل إلى سكوتو ودفن فيها؛ وقد عمل خلفه على الحفاظ على الدولة وردع المتمردين. وقد مر على حكم دولة سكوتو منذ تأسيسها إلى غاية سقوطها على يد الإنجليز 1903م أحد عشر خليفة.¹

ويمكن القول، بأن الدولة الإسلامية في سكوتو كانت قد أقامت نظاماً فريداً من نوعه في إفريقيا جنوب الصحراء، وصارت نموذجاً لكل الحركات الجهادية في المنطقة، مثل حركة أحمد لوبو الماسيني، وعمر الفوتي، وأحمد الأمين الكانمي.²

2- حركة أحمد لوبو الماسيني ودولته (ت 1260هـ/1844م):

إن تأثير دعوة بن فوديو لم تبق حبيسة مكان انطلاقها، بل تعدت حدود بلاد الهوسا واتجهت غرباً وضربت بجذورها في عمق المنطقة، فساهمت في بروز حركات إصلاحية وجهادية أخرى منها: حركة أحمدو لوبو بإقليم ماسينا.³ على ضفة نهر النيجر، وشملت هذه الحركة رقعة واسعة ضمت شمال شرق جمهورية مالي الحالية.⁴

1- علي يعقوب: الخلافة العثمانية في سكت ودورها في غرب إفريقيا، في مجلة قراءات إفريقية، ع 11، جانفي مارس 2012، ص 7.

2- عبد الرحمن عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا الواقع والمستقبل، د. م. ج. الجزائر 1992م، ص 144.

3- ماسينا: تقع في الشمال الغربي لمنطقة السودان الغربي في منعطف نهر النيجر وهي في جمهورية مالي الحالية، لاسمها عدة تفسيرات والمرجح أنها تعني باللغة الفلانية موسي كناية عن خصوبة الأرض الصالحة للزراعة والرعي وأنظر عثمان برايا باري: المرجع السابق، ص 158.

4- عبد القادر زبادة: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1999، ص 92.

أ-المولد والنشأة:

ولد أحمدو لوبو باري في قرية يوغو ماسيرو سنة 1189هـ/1775م¹، وقد أُخْتُلِفَ في مكان وسنة ميلاده، فمنهم من أرجع سنة ميلاده إلى 1773م ومنهم من قال في 1776م، ومنهم من قال أنه ولد في مالانفال و بامغال².

نشأ الشيخ أحمد يتيماً، إذ فقد والديه وهو في سن الطفولة، فكفله أخواله، حيث حفظ القرآن الكريم وهو في سن الصبا كما هي عادة أبناء القبائل المسلمة في المنطقة، واستمر في تحصيل الفقه وقواعد اللغة العربية مع أبناء أخواله، ودرس على يد بعض مشايخ منطقته كشيخ حما، والشيخ سمبا حمدي باما، وبعدها انتقل إلى حاضرة جني والتي كانت في تلك الفترة من المراكز الإسلامية الكبرى في غرب إفريقيا، حيث درس التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ الإسلامي³.

عرف الشيخ أحمدو الطريقة القادرية بواسطة الشيخ كبرا فارما⁴ ولما أكمل دراسته عاد إلى بلده، حيث استقر وأخذ يعظ الناس ويدرس الناشئة، ومن المرجح أن أحمدو لوبو الذي أصبح يعرف بالإمام الشيخ قد تأثر بالتيارات الفكرية السائدة بالمنطقة، خاصة فكر الشيخ عثمان بن فودي مؤسس دولة الفلاني، ويعتقد الكثير أنه سافر إلى بلاد الهوسا عام 1805م، وشارك في الجهاد الذي أعلنه الشيخ عثمان بالمنطقة⁵.

1 Maurice Delafosse : Les noirs de l'Afrique, Payot, Paris, 1922 p 231

2- عثمان برايا باري : المرجع السابق، ص 167، وكذلك :

Hamadou Boly : Le soufisme au Mali du XIXème siècle à nos jours : religion, politique et société, thèse doctorat, dirigée par Geoffroy Eric, Ecole doctoral des humanités, Université de Strasbourg, 2013, p59.

3 عمر الماحي : المرجع السابق، ص 153.

Hamadou Boly : op.cit., p60. 4

5عثمان برايا باري: المرجع السابق، ص 168.

ولقد كانت الأوضاع في ماسينا يسودها العداء والتناحر بين القبائل التي تسكنها، المسلمة وغير المسلمة، كما كان الأرماء؛ وهي بقايا الجيش المغربي بعد الهجوم على سنغاي قد عادت إلى الواجهة بعد سقوط سنغاي سنة 1591م، وضاق هؤلاء بالشيخ فتحالفوا مع حاكم سيجو الوثني ضد الشيخ أحمدو الذي اعتبر هذا التحالف موجباً للجهاد، حيث أرسل رسولين لأخذ الإذن من الشيخ بن فودي وقبل أن يصله الرد أعلن الجهاد على دولة ماسينا وحقق انتصارات باهرة وأخضعها لنفوذه في سنة 1225هـ/1810م، لقيت هذه الانتصارات صدى في نفوس المسلمين في السودان الغربي، وارتاح لها الشيخ عثمان ونصبه أميراً على ماسينا ومنحه لقب الشيخ.¹

أسس الشيخ مدينة جديدة سماها حمد الله في 1815م، لتكون حاضرة لدولته الإسلامية، التي كانت تضم منطقة مالي وبوركينا فاسو، وقد اختار لها مكاناً مناسباً من نهر النيجر ومرتفعة قليلاً، وفي مأمن من أخطار الفيضان.²

ب- تأسيس دولة ماسينا وتنظيمها:

- تأسيس الدولة :

لما انتهى الشيخ من بناء عاصمته، جمع علماء البلاد لاستشارتهم في كيفية تنظيم الدولة وإدارتها، وقال لهم: "لا أريد أن أحكم البلاد لوحدي، ولا بد من مساعدة الآخرين، ولا بد من اجتماع الكل واتحادهم لتكون دولة منظمة؛ وطلب منهم أن يقدموا له مشروع الحكم، وبعد أشهر حضر له العلماء المشروع ويتكون من مجلس للشورى يسمى بالفالانية باتوماودو؛ أي مجلس الكبار متكوناً من أربعين عالماً، ونظم الشيخ أحمد دولته تنظيمًا جيدًا حتى أصبحت من أرقى الدول في زمانه.³

1 أحمد بوعتروس: المرجع السابق، ص 202.

2 علي يعقوب: حياة الشيخ أحمد حمدي ليو ودولته الإسلامية في ماسينا، في مجلة قراءات، ع 08، أبريل جوان، 2011، ص 7. عمر الماحي: المرجع السابق، ص 153.

3 Hamadou Boly : op.cit., p61.

- تنظيم الدولة :

أما من حيث التنظيم الإداري، فقد قسّم أحمدو لوبو دولته إلى خمس مقاطعات وهي: إمارة دنيري، وإمارة فكلّا كناري، إمارة هيري سينو، إمارة نيدوبي، إمارة ماسينا، ويرأس كل إمارة أمير يعاونه أحد الأمراء الأكفاء، ويتمتع الأمير بكامل السلطات العسكرية والقضائية.¹

قسم العاصمة إلى سبعة أحياء يشرف على كل حي قاضي خاص، وعين قاضي القضاة على هؤلاء، وجعل للمدينة أربعة أبواب وأحاطها بسور ضخّم، وبنى وسطها مسجداً وجعل لكل حي من أحيائها سوقاً مع السوق المركزي، وجعل لكل سوق مشرفاً.²

- تأسيس المجالس:

لقد اعتمد الشيخ أحمدو في تنظيم دولته ثلاثة مجالس بعد أخذه بالرأي الاستشاري وهي:

مجلس الكبار: ويتكون من أربعين فرداً من كبار وعقلاء وعلماء البلاد، وأوكل رئاسته لأحد أكبر وأشهر العلماء فيها.

- مجلس المحكّمين:

ويتكون من ستين شيخاً من قدماء الشيوخ المجاهدين، ويترأسه الشيخ أحمدو نفسه بمعية اثنين من الأعضاء.³ وفي حالة اختلاف في الآراء بين المجلسين المذكورين أنفاً يختار أربعين عضواً بالقرعة من المحكّمين الستين لاتخاذ قرار نهائي في المسألة محل الخلاف. ولا يمكن الطعن والاستئناف في هذا القرار، ويمكن للأمير

1- عثمان برايا باري : المرجع السابق، ص 171. انظر كذلك علي يعقوب، المرجع السابق، ع 8، ص 7.

2- علي يعقوب : نفس المرجع، ع 8، ص 7.
3-Hamadou Boly : op.cité, p61.

تفويض بعض من سلطاته لأعضاء المجلس، والجدير بالذكر أن أعضاء هذه المجالس يشترط فيهم ألا يقل سن العضو منهم عن الأربعين سنة.¹

وكان للقضاء في دولة أحمدو لوبو أهمية خاصة، لاعتباره صمام الأمان لحفظ الحقوق وإرساء العدل، فكان القضاء يستمدون أحكامهم من الكتاب والسنة، ويتمتعون باستقلالية تامة عن الإدارة، حتى أن القاضي يمكنه مقاضاة الأمراء أمام المجلس الاستشاري، إذا ما ثبت اتهامهم أو تورطهم في قضايا كالإخلال بالمهام الموكلة إليهم، أو عدم قيامهم بواجباتهم على الوجه الكامل، وكان كل قاض يتولى إدارة شؤون القضاء، وينظر في الخصومات و النزاعات، ويصدر الأحكام القضائية، وعلى رأس القضاة قاضي القضاة الذي يعد بمثابة وزير العدل، ومن أجل تسيير إجراءات المحاكمة وعرض السجناء على القاضي جعل محكمة العاصمة بجوار السجن.²

-تنظيم الجيش:

أنشأ الشيخ أحمدو لوبو جيشا قويا، ونظمه تنظيما دقيقا للدفاع عن البلاد، وجعل في كل مدينة قوات من الجيش، وعين في كل منطقة قائدا عسكريا، وعين بن عمه بالبوبر بولو، قائدا عاما للجيش، وقد سهر الشيخ أحمدو على تفقد الجيش ومراقبته باستمرار؛ كما جهزه بأسلحة حديثة، كان يكتنيها من التجار الاوربيين، وأدخل الأساليب الحديثة في تدريباته، اما التجنيد فكان الزاميا، اذ يجب على كل أسرة أن تبلغ عن ابنها اذا ما بلغ عشرين سنة، ولقائد الجيش تجنيده أو تسريحه حسب الحاجة وصلاحيه المجند، لذلك كان انتقاء المجندين من بين ذوي البنية الجسدية السليمة، المتميزة بالقدره والحيوية والنشاط.³

ولم يتوقف الشيخ أحمدو في نشاطه الدعوي والجهادي بتنظيم الدولة وحضور مجالس الدرس إلى أن وافته المنية عام 1260هـ-1844م، ثم استخلفه ابنه أحمد بن

1- أحمد بو عتروس: المرجع السابق، ص280.

2- Cit, p.2Maurice Delafosse : op 231.

3- علي يعقوب: المرجع السابق، ع8، ص8.

أحمدو لوبو الذي استعاد هبة الدولة بعد التمرد من بعض السكان، وسار على نهج والده في الحكم، وبعد وفاته 1852م خلفه ابنه أحمد بن أحمد بن أحمدو لوبو (أحمد الثالث) الذي قتل في حروبه مع الحاج عمر الفوتي.

مما تقدّم يمكن القول، بأن دخول الطريقة القادرية إلى أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء، قد أسهم في ترقية المجتمع من خلال نشر الإسلام وتطوير التعليم ومناهجه، كما كان لها تأثير فعال في ترقية الحياة السياسية في المنطقة، سواء بواسطة كتابات العلماء ومشايخ الفقهاء، أو ببروز شخصيات من أتباع الطريقة القادرية ساهموا في تأسيس ممالك وإمارات لشعوب تلك المناطق.

ويُعد الشيخ سيد أحمد البكاي من أوائل الدعاة للطريقة القادرية في القبائل الصحراوية والافريقية، والتي بلغت أوجّها على يد الشيخ سيد المختار الكبير الكونتي، الذي عاش في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ما بين ولالة وتمبكتو ومنطقة توات جنوب غرب الجزائر.

والحقيقة أن الطريقة القادرية عرفت المجال الأكبر لانتشارها في غرب إفريقيا بعد أن تزعم عثمان بن فوديو عملية الاحياء القادري بتلك المناطق الافريقية.

ومهما يكن، فإن الطريقة القادرية قد أدّت في العالم الإسلامي عموما وفي افريقيا جنوب الصحراء خصوصا دورا سياسيا وعسكريا لا يمكن للباحث إنكاره، فقد شهد بدورها السياسي والعسكري كثير من المستشرقين والمؤرخين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر المستشرقين الإنجليزي مرجيلوت، والمستشرق الألماني شاخت، والمؤرخ الفرنسي هنري طيراس، والمؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان، والكاتب الفرنسي ريشيه، والأستاذ ديون، والضابط الفرنسي كوبولاني الذي قُتل في سنة 1906م، والجنرال الفرنسي كورو، والأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي، وغيرهم كثير.